الفصل الثالث
علم النفـــس

1) الاتحاد بين النفس والجسد.

2) دور المخ فى تكوين الإحساسات.

3) الحرية بين الإرادة، وتحولات الإحساس.

تمهيد:

لقد اتسمت فلسفة كوندياك باتجاهها العملى، خاصة وقد أفرد كوندياك مبحثاً من فلسفته لدراسة علم النفس، وكان أول موضوعاته هو الصلة الوثيقة بين النفس، والجسد ودورها فى المعرفة.

1) الاتحاد بين النفس والجسد:

يتجه كوندياك فى دراسة علم النفس إلى تأكيد الاتحاد الوثيق بين النفس والجسد فيسلم بحصول النفس على الأفكار الفطرية التى لا تكتسب بالحواس قبل ارتكابها الخطيئة، وقدرتها على اكتسابها بعد هذه الحياة، غير أنه يفترض عجزها عن معرفة القوى الخاضعة لها، والموهوبة لها من قبل الله وهو فى- ذات الوقت- ينكر افتراض وجودها فى الطفل استناداً لعجزه عن إنجاز الأعمال التى يريدها لعدم امتلاك الأفكار المفطورة فيه، ومن ثم فنحن نسلك مثل الطفل تماماً، عندما نظن أننا اكتسبنا فيما مضى كثيراً من المعارف أو حصلنا على الأفكار بمعزل عن حواسنا الحاضرة، ويمضى كوندياك فى تفسير وجهة نظره فيقول: "..... إننا نعتقد عندما تتشابه الأفكار بيننا وبين أقراننا أنها نفس الأفكار التى فطرت فينا قبل الإحساس، واكتسبناها قبل عصر العقل، ولا نقدر على ملاحظتها فى الوقت الحاضر لامتلاكنا لها.

إنه لضرب من ضروب الخيال أن نؤمن بنظرية الأفكار الفطرية Idess innes عند ديكارت، ونظرية الرؤية فى الله

Vision en Dieu عند مالبرانش أو نظرية التذكرReminiscence عند أفلاطون، وأن نعرف أن النفس قد وهبت المعارف قبل اتحادها بالجسم بحيث لا تفعل فى عالمنا الحاضر إلا ما نتذكره عما عرفناه فى العالم الآخر[1]. ولكن هل كان رفض الأفكار الفطرية هو محور نظرية المعرفة والقوى الإنسانية عند كوندياك، يقول فى هذا الصدد: "إن كل ما نكتسبه من عادات ومعارف وقوى ترجع برمتها إلى الحواس أو بالأحرى- إلى الإحساسات؛ لأن الأولى علة عرضية، أما الثانية فهى إحساسات متحولة تكون جميع معارفنا وقوانا" وهنا نتساءل إذا كانت الحواس لكونها علة عرضية ليست هى الطريق المباشر والأساسى لمعارفنا، فما هو إذن دور الإحساسات المتحولة التى تكون المعارف والقوى فى الإنسان؟

يجيب كوندياك: "بأن قوى النفس لا تحصل فيها عن طريق والحواس، لكنها تحصل فيها كخصائص فطرية"[2]، ولهذا ينبغى علينا تجريد النفس من عاداتها كلهما بحيث لا نرى غير الإحساسات التى تشبه الانطباعات الناتجة عن الأعضاء وجميع قواها الأخرى.

وعلى الرغم من عدم وجود إحساسات متباينة (ملائمة أو غير ملائمة) إلا أن الإحساس غير الملائم لا يترك أثراً للانطباعات التى تنطبع عليه، ويتبع ذلك امتناع المعرفة أو الحصول على قوى الاحساس الأخرى.

يعطى كوندياك لقوى النفس عدداً من التعريفات النفسية مثل نشاط النفس الحاجة، الانتباه، قوى الذاكرة، المقارنة، التخيل،

---

(1) Traite des sensations P 140.

(2) Ibid P 61.

فنشاط النفس هو حرمانها من موضوع سعادتها، أما القلق فإنه الحاجة أى حاجة النفس، وهى قابلة للتكرار وللتكوين من جديد، وتتميز بالعمل على إثراء معارفنا وقوانا[1]. والانتباه يعنى به الإحساس النشيط فما هى خاصية هذا الإحساس؟

يقول كوندياك: "أنه إذا افترضنا أن مجموعة من الاحساسات تدرك فى ذات الوقت بنفس الدرجة من النشاط، فإن نشاط وقوة الإحساسات تقل لكثرة الانطباعات التى تنطبع على كل فعل للنفس، ويظل الإنتباه محتفظاً بحالة نشاطه وفعاليته باعتباره الإحساس الوحيد الذى تتشكل به النفس، فإذا ما حصلت على إحساس جديد أكثر نشاطاً وفعالية من الأول فإن الانتباه يتحول إليه فى حين يظل الانطباع الناتج عن الإحساس الأول محتفظاً بكل قوته. ولكن هل تستمر قدرتنا على الإحساس على حالة واحدة؟

يرى كوندياك أن قدرتنا على الإحساس تنقسم إلى حالتين: حالة الإحساس بالماضى، وحالة الإحساس بالحاضر، ويعنى ذلك إحساساً امتلكناه، وإحساساً نمتلكه وبهما معاً تتكون قوى الذاكرة إنها ليست إلا الإحساس الذى لم نحسه فى الحاضر وتقدمه لنا الذاكرة، فإذا ما وجهنا انتباهنا إلى شيئين فى ذات الوقت كانت المقارنة التى تصبح هى والحكم إحساسين متحولين. أما التأمل فيأتى من تركيز انتباهنا على عدة أشياء، وعدة أجزاء فى ذات الوقت، أو عدة خصائص وعندما تصبح فكرتان بفعل التأمل فكرة واحدة، فإنها تسمى فى الأول والثانية بقوى التخيل، وإذا توصلنا إلى ثلاثة أحكام

([1]) Ibid.

يتضمن الثالث منهم فى الحكمين الأولين فهنا تكون قوى التعقل، ويصبح التأمل، والتخيل، والتعقل إحساسات متحولة.

وهكذا تتكون عمليات الإدراك من قوى الانتباه، والمقارنة، والحكم، والتأمل والتخيل والتعقل، وبنفس المقدار فإن عمليات الإرادة ليست إلا تحولات من الإحساس. أما الحاجة - كما سبق القول- فما هى إلا القلق أو المعاناة الناجمة من الحرمان من شيء يعتقد بضرورة وجوده، وتلعب الحاجة دوراً أساسياً فى توجيه قوى النفس نحو موضوعه، ويتحول هذا التوجيه إلى الرغبة التى تصبح نشيطة ومستمرة توجه قوانا بصفة دائمة إلى موضوعها متخذة معنى الشهوة، أما الرجاء فإنه يتأتى من حكمنا بالحصول على موضوع ما فى المستقبل، فى حين تظهر الإرادة إذا اعتقدنا فى عدم وجود عقبات، وأنه ما من شيء يحول دون تحقيق إرادتنا لأننا نقاوم ونتغلب[1].

إن الإرادة هى التى تحددجميع العمليات وليدة الحاجة كالرغبة والشهوة والرجاء وهى تمثل الرغبة الجامحة التى لا تعوقها عقبات[2].

أما الفكر فإنه يتكون من اجتماع الإدراك والإرادة فى حين يكون الإحساس هو الانتباه، المقارنة، الحكم، التأمل، التخيل، التعقل، التذكر، الحاجة، الرغبة، الرجاء، وتتولد قوى التعقل والإرادة بتحول الإحساسات فنفوسنا تحس أولاً الانطباعات المجردة من خلال كل حاسة على حدة، ثم من خلال الحواس مجتمعة، ولكن إذا كانت

([1]) Ibid P 63.

([2]) Ibid P 66.

نفوسنا بصفة عامة تحس عن طريق انطباعات الحواس. فكيف يفسر كوندياك إذن دور الحواس فى معرفة قوى النفس؟

يرى كوندياك إننا يجب أن نتصور نجاحنا الدائم فى الحركات التى تولد اللذة وتتجنب الألم، قبل أن نكتسب الحركات التى تنبهنا وتحرك إرادتنا، فعن طريق حاسة اللمس نستطيع اكتساب الأفكار عن الشكل، المسافة، المكان، ومن ثم يصبح لهذه الحاسة دوراً فى إرشاد الحواس الأخرى فى الحكم على الموضوعات الخارجية[1]. فنكتشف عن طريقها عضو الشم فعندما نقرب زهرة ما، أو نبعدها نشعر أول ما نشعر برائحتها، ونحكم على صدورها من الزهرة أولاً، كما نجعل الرائحة خاصية للأجسام، تماماً مثلما نجعل الأصوات خاصية لها.

إن حاسة اللمس تفيدنا فى الحكم بواسطة السمع على المسافات والأوضاع مما يوقعنا أحياناً فى الخطأ، كما نحس الألوان بطرف عيوننا، مثلما ندرك موضوعات اللمس بأطراف الأصابع، كما نلمس الجسم الذى تراه عيوننافى تكوينات السطح، فإذا ما أخفينا جزءاً منه بزراعنا، لم ندرك منه سوى الجزء المرئى، كما نبدل لون ما بآخر[2].

وتبعاً لذلك ننسب ما نراه ونحسه إلى هذا الجسم، وعندما نمرر أيدينا مع عيوننا على الأجسام، والأخيرة على عيوننا فإننا نقيس المسافة، ثم نعمل على تقريب أو إبعاد هذه الأجساد، كما ندرس

([1]) Ibid P 64.

([2]) Ibid P 65.

الإنطباعات التى تلاحظها العين فى كل مرة ونحن نتعود على ربط هذه الإنطباعات مع المسافات المعروفة باللمس فنرى كل من الموضوعات القريبة والبعيدة، لأننا نرى حين نلمس[1]. وعلى هذا النحو تميز العيون الكرة عن الملعب، وتحكم على المسافات والأحجام، وقد نحجم عن الحركة فى الخلاء الذى توجد فيه أيدينا، ثم نمد ذراعنا لنأخذ ما نراه حتى نصل إلى شيء نلمسه، ونكرر هذه الملاحظة فنتعود بالتدريج على رؤية الجسم خارج أيدينا.

أما الرؤية فتحدث بسبب التغيرات التى تحدث للانطباعات البصرية، فمهما ابتعدت مسافة الجسم أو اقتربت، فإننا نرى الضوء والألوان الناتجة عن الموضوعات تمر باللمس لارتباط الأحكام المختلفة بالإنطباعات المختلفة للضوء، كلما تكررت أحكامنا من جديد، وتعد حاسة اللمس بما لها من قدرة على التمييز بين الظروف المختلفة هى الحجة التى تدفعنا إلى الثقة فى شهادة الحواس، وتصبح التحولات الأولى التى تجربها النفس لكل حاسة مماثلة لما تجربه عن طريق حاسة اللمس[2].

لكن ما هي العلل الطبيعية التى تنتج هذه التحولات؟ إنها تبدو عند كوندياك شيء مجهول لا يعرف مصدرها، هل توجد فى أرواح الحيوانات، هل تتمثل فى الأعصاب، أم فى نسيج العضلات وغيرها، إن كوندياك لا يعرف غير الحركة إنها مبدأ النمو والإحساس، وهى أصل حياة الحيوان بدونها يموت، والحركة تقل بالنوم، ويتكون الجسد من

([1]) Ibid P 66.

([2]) Ibid P 60.

الدم، الأحشاء، الغدد التى تمثل الوظائف الحيوية والضرورية لحفظ الجسد وإصلاحه.

ولكن ألا توجد ثمة قوانين تحكم هذه الحركة، إن هذه القوانين مجهولة كذلك، ونحن لا نعلم غير تلك التى تتحكم فى حياة الحيوان، خاصة فى مروره من حياة النمو إلى حياة الإحساس. هذا وتعمل الموضوعات المؤثرة على الحواس إلى تغيير الحركات التى تنمى الحيوان وتبث فيه الحركة الحسية[1].

2) دور المخ فى تكوين الإحساسات:

إن الإدراك الحسى الذى يعرِّفنا بالعالم الخارجى يأتى محصلة لتآذر الإحساسات التى تشير إلى الأشياء الخارجية، وعمل المخ فينتج الإحساس الحالى بالعالم.

وتعتمد معرفة العالم على الإحساس، فنحن لا نحس إلا بقدر ما تلمس أعضاءنا أو يكون ملموساً من خلال الموضوعات التى تؤثر على الأعضاء، فالحواس ترتبط بالمخ الذى يؤثر تبعاً لذلك على العضلات، ويعمل الإحساس باللذة أو الألم على دفع الجسم إلى عمل ما، أو تجنب حركات معينة لكى تتعود الحواس على عادات معينة، بحيث تتحرك من تلقاء نفسها، وتصبح النفس فى غير حاجة إلى من ينبهها دائماً إلى تنظيم حركاتها، ولكن ما هى الإحساسات المكتسبة بتتابع العادات؟

يرى كوندياك أن الإحساس بالألم الحاضر هو نفسه الإحساس الحاضر للذوق، والسمع، والبصر، والشم، ويتدخل عضو اللمس

([1]) Ibid P 67.

لتهذيبه وتنظيمه فتتكون لدينا فكرة عن الألم[1]. وإذا كانت الإحساسات تكون أفكاراً أو قوى، فكيف يقسم كوندياك الأفكار الناجمة عن الإحساس[2]. إنه يقسمها إلى نوعين بسيطة ومركبة، الأولى هى الإحساسات الحاضرة التى يمكن أن يعطيها اسم الأفكار عندما تؤخذ منفصلة. أما المركبة فهى التى تتكون عن طريق اجتماع عدة إدراكات حسية أو أفكار بسيطة، ونحن لا نستطيع التمييز بدقة بين فكرة بسيطة وأخرى لعدم قدرتنا على تقسيمهم، فى حين أننا نستطيع التمييز بين فكرتين مركبتين عندما تجتمع الإدراكات الحسية فى نمط واحد فتكون إدراكات حسية بسيطة مختلفة، وفى هذه الحالة تظل النفس سلبية فى إنتاج الأفكار البسيطة، إيجابية فى إنتاج الأفكار المركبة.

ويجب التمييز بين المعانى المكونة من الإدراكات الحسية المختلفة، وبين الجواهر والموجودات، أو بين هذه التى تقدم الموضوعات المحسوسة، وتلك التى تكون المعانى المجردة التى تشكل موضوع الرياضيات والأخلاق والميتافيزيقا، فالأولى تتكون وفق نموذج من الجواهر بحيث لا تقدم إلا الخصائص المتضمنة فيها أصلاً. أما الثانية فتتكون بطريقة مختلفة جداً لأنها تقدم لنا أفكاراً جديدة عن معنى معين مكونة معانى ذات تعريفات[3]. وتظل الأفكار البسيطة أو المركبة منعزلة أو فردية؛ لأن الحواس لا تمدنا إلا بالمفردات التى

([1]) Ibid P 69.

([2]) Ibid.

([3]) Ibid P 70.

نستطيع تسميتها بالمحسوسات؛ لأنها تنتج عن الموضوعات المؤثرة على الحواس فى الحال[1].

ولكن متى كان الموضوع غالباً فإن التذكر يقدمه لنا تحت اسم الأفكار العقلية، أى الأفكار التى تقدم لنا الموضوع الغائب من جديد، وهذه المعارف العقلية التى يجلبها التذكر هى ما تكون قاعدة معارفنا، وتكون الأفكار المحسوسة هى الأصل فى إيجادها. وفى استطاعتنا بعد ذلك أن نعتبر الأفكار الفطرية موضوعاً لتأملنا، ونقتصر عليها دون أن نستخدم حواسنا حتى يصل بنا الحال إلى الاعتقاد بأنها مثل الأفكار الفطرية، وأنها سابقة على الإحساس، كما تأتى من جديد عندما نريدها ونحكم بها على الموضوعات التى تقدم إلينا [2]. وفى مقارنة الأفكار المحسوسة نكشف النتائج التى تؤدى إلى نتائج جديدة معقولة.

وهكذا فنحن نتأذى من الأفكار الفردية إلى الأخرى الأكثر عمومية، لكن الأفكار المجردة والعامة ليست إلا تسميات ضرورية بالنسبة لنفوسنا المحدودة ولا تتطابق مع أى شيء موجود.

وهكذا يهاجم مذهب كوندياك الأسمى قوى النفس والأفكار عن العدد والأجناس والأنواع والصور والجوهرية.

وماذا عن التصور الكوندياكى عن الجواهر الروحية؟

([1]) Ibid P 71.

(1) ينوه كوندياك بذلك إلى مذهب الأفكار الفطرية، فهو المذهب الذى يعترض عليه، ويقيم مذهبه المادى الحسى بدلاً منه مسبقاً الإحساسات على التامل كما يتضح من فلسفته.

إنه يسلم بوجود شيء ما يقع تحت إحساساتنا، أو ما يعرف بالجواهر الروحية لكنه يعتقد بعجزنا عن معرفة طبيعتها الداخلية، كما يعتقد بأنها علة الحركات التى ننتجها وتصدر منا، بينما توجد علة للحركات التى تحدث فى الخارج، وأن الله هو العلة الأولى للعالم. ونحن تعجز عن معرفة القوة التى تنتج الحركة، أما معنى الخلاء فهو المكان المجرد من الامتداد، والامتداد هو الفكرة التى تنتج من معايشة الإحساسات[1].

أما الزمان فهو الفكرة التى تأتينا من التتابع؛ لأن فكرة الأول والأخير تأتينا من التجريدات التى تقتصر على تحليل إحساساتنا، وكذلك فنحن لا نملك أى فكرة عن العدد اللامتناهى. نعم لقد وقع الفلاسفة فى التناقض عندما رأوا اللامتناهى فى كل جزء من المادة، من الخلاء، وفى كل لحظة من الزمان، لكن ذلك جعلهم متناقضين[2].

وإذا كان الامتداد هو الفكرة الناتجة من معايشة الإحساسات، والزمان هو الفكرة الآتية من التتابع، فما التصور الكونديلاكى عن فكرة وجود الله؟- وهل بإمكاننا امتلاك فكرة عنه؟

يقول: "إننا لا نملك على الإطلاق أى فكرة عن اللامتناهى فى الصفات حين أن المعانى الكاملة التى نمتلكها عن الله لا متناهية".

وبعد أن ينتهى كوندياك من تعريف الإمتداد والزمان والله يبحث عن مصدر أفكارنا الأخلاقية، فيرى أنها تصدر عن الحواس

([1]) Ibid P 62.

([2]) Ibid P 73.

بفعل القانون الطبيعى الذى خلقه الله ووضعه فينا قبل الخليقة فأخضعنا له، وجعل مصدره الإرادة، ونحن نتلمس هذا القانون فى أنفسنا، ويكفى تأثيره على حاجاتنا ولذاتنا وآلامنا برهاناً يشهد على مقدار احتياجنا لمساعدة الله "وفى هذا النطاق تتبلور الأخلاق فى القوانين التى تشرع الممنوع والمسموح، واكتمال الأخلاق بهذه القوانين يكون بمثابة الإرتفاع بالمعارف إلى الله مصدر تشريعاتنا وواهبنا جميع القوى للقيام بواجباتنا تجاه خالقنا وحافظنا"[1].

3) أهمية الذاكرة فى اكتساب المعارف:

تستطيع النفس اكتساب المعارف عن طريق واحدة من العمليات ألا وهى الذاكرة التى تشكل مصدر معارفنا، وتكون الأفكار العقلية، ثم يبحث كوندياك عن الأسباب الطبيعية للمحسوسات والذاكرة، فيرى أن النفس ليست فى حاجة إلى من ينظم حركتها، ذلك أن الأعضاء والحواس تعتاد على الحركة بذاتها، فأنسجة المخ مثلاً تكتسب من خلال مرونتها الحركية الاستجابة المستمرة لنتائج الحركات المختلفة المجددة مثل الأصابع تماماً، كما أن المخ يكتسب الحركة بذاته وبسهولة، ومن ثم نستطيع تذكر الموضوع الخاص بالذاكرة[2].

أما الانتباه فإنه يبقى فى النفس حتى فى أثناء غياب الموضوعات، والإدراكات الحسية التى تكون بمثابة مناسبات عرضية، ويقتصر دور التخيل على الحصول على الإحساس بشيء سمعناه إذا ما

---

(1) Ibid P 77.

(2) Ibid P 75.

تخليناه. أما التذكر (الذاكرة) فيقتصر وعملها على تذكر الإشارات أو شيء ما من الظروف المحيطة بالإدراكات الحسية، فى حين يرتبط الانتباه بالأفكار الخاصة بالحاجات؛ لأنه لا يجذب غير الأشياء التى تحتاج إليها[1].

وعند سماع الأسماء أو فى ظروف معينة، تتيقظ إدراكاتنا الحسية بسبب الترابط الذى يخلقه الانتباه بين هذه الأشياء، وما ينتج عنها من حاجات، وهى من ثم تختلف من فرد لآخر بحسب حاجته، مما يعطى صورة واضحة لحصول المخ على الحركات، وقوة النفس فى ربط الأفكار بعضها البعض، وذلك لمرونة الأعضاء المختلفة. ويلعب ترابط الأفكار دوراً رئيسياً فى قوة أو ضعف نمو الذاكرة، وبالتالى فى ازدياد أو قلة عدد الأفكار التى تكون مصدر معارفنا، ولكن كيف تترابط هذه الأفكار بعضها البعض لكى تكون المعرفة؟

يرى كوندياك أننا نستخدم الإشارات لربط الأفكار وترتيبها، وبالتالى تكوين المعرفة. أما انطباع الموضوعات على الحواس وحدوث المعرفة، فيحدث من ترابط الذاكرة مع عمل المخ، وتلعب مرحلة الشباب دوراً فى نمو المعروفة، فى حين تضعف الشيخوخة من مرونة أنسخة المخ فتختل الذاكرة وتضعف[2].

ويتوقف نمو الذاكرة وقوتها على ترابط الأفكار داخل المخ، مما يؤدى إلى زيادة أو قلة عدد الأفكار العقلية التى تترابط بواسطة

([1]) Ibid.

([2]) Ibid P 79.

الإشـــارات فتكـــون معارفنـــا ، وتنقســـم الإشـــارات *gestes* إلى ثلاثة أنواع هى:

(أ) إشارات عرضية:

هـى نـوع غـائى مـن الإشـارات تكـون الموضـوعات التـى يسـتحيل علينـا منـع أفكارهـا ، وتتعلـق بتلـك التـى تـرتبط مـع إحـدى أفكارنـا بظروف خاصة فتذكرنا بها[1].

(ب) إشارات طبيعية:

وهى تلك التى تكون إحساسات اللذة، الخوف، الألم.

ولما كنا عاجزين عن التنبه إلى الفكرة حين نصادف سماعها ، فمن ثم نصبح غير قادرين على الذاكرة عن طريق الإشارات العرضية أو الطبيعيـة ، فـلا بـد إذن مـن و جـود إشـارات مسـاعدة هـى مـا يسـميها كونديلك بالإشارات المرتبة ، وهى التى تمثل النوع الثالث.

(ج) إشارات مرتبة:

هـى تلـك الإشـارات (المنتقـاة) التـى يختارهـا الإنسـان وتتميـز بالفظرة لصدورها عن لغة الحركة التى تسهم فى النظام، وتتكون من الأصوات أو الإشارات التى ترتبط بالأفكار التى نكررها. وتأسيساً على ما سبق تكون الأجناس والأنواع والعمليات الناتجة عن ترابط الأفكار مصحوبة بالإشارات بأنواعها المختلفة مع ترابط حركات المخ.

4) الحرية بين الإرادة، وتحولات الإحساس:

---

(1) Ibid P 77.

بعد أن يعرض كوندياك للقوى والعمليات العقلية والإرادية التى تحصل للتمثال يذهب إلى التساؤل عن حرية التصرف؟ أى حرية الفعل؟ وكيف نميز بين الإنسان والحيوان؟

إن كوندياك لم ينوه فى دراسته فى الإحساسات إلى مفهوم الحرية، فهو لا يرى فى الإرادة إلا تحولات للإحساس وما يستتبعه من عدم حرية التصرف، ومن جهة أخرى فنحن نرى أن كوندياك يسهب فى تفنيد مالبرانش فى مؤلفه "دراسة فى المذاهب" لعجزه عن تفسير ما إذا كانت النفس هى المادة التى تستطيع تحديد الانطباع الذى أعطاه الله لها أم لا؟

ورغم أنه لم يكتب صراحة عن فكرة الحرية فى مؤلفه "دراسة فى الإحساسات" بيد أنه أشار إليها فيما عرضه عن حالة التمثال بعد أن أصبح حراً وأمدته التجربة بوسائل تقليل أو منع حاجاته بعد اختيار فوائدها ومضارها حتى يتسنى له البحث عن موضوعاتها، أو النفور منها[1]، كما أنه يتذكر الأخطار التى وقع فيها حتى يحدد الكراهية الزائدة، كما يطيع الحركة الأولى من شهواته طاعة عمياء، كما يندم على فقدانه للقيادة الجيدة، ويحس بتبعيته عندما ينظمها طبقاً للمعارف التى اكتسبها واعتاد على استخدامها، كما اعتاد بالتدريج على مقاومة رغباته مما يجنبه الألم ويقلل من سيطرة الشهوات، وهنا يظهر هذا الذى يدين له العقل بإراداته وتجربته.

لقد تحول كوندياك عن هذا الموضوع فتصور أن التمثال يتحدث عن حالته بعد استخدام حواسه كلها على التوالى ويخبر بالتجربة بقوله:

([1]) Ibid P 79.

"أنا أجرب، أنا أتروى قبل الفعل، أنا لم أطع شهواتى طاعة عمياء، إننى أقاومها وأسير تبعاً لأفكارى، إذن أنا حر، ولقد استخدمت حريتى على أفضل ما يكون واكتسبت أكثر المعارف".

ولكن إذا كان كوندياك قد تحدث عن الحرية فى "دراسته" بعد أن عرض لمذهبه فى استخدام الحواس، فهل يعنى ذلك أنه تناقض مع نفسه؟ لقد أشار كوندياك إلى أن غرضه الأساسى من تاليف هذا البحث هو بيان مزايا المنهج الذى اتبعه فى هذه الدراسة، ومن ثم فإنه يكرر الأفكار الموجودة على مرحلتين[1]، ويشرح ظهور جميع القوى فى التمثال على التوالى، وظهور الحرية.

وهكذا فقد تعلم التمثال وأحس باللذة والألم، كما تعلم أن يندم على سلوك ما، وأن يتروى قبل التصميم على فعل شيء، ولهذا فإنه يقارن رغباته المنقسمة بين الوسائل إرضائه والعوائق فى التغلب على اللذات الممتعة، ولا يبحث فى ذات الوقت عن الموضوع الذى يقدم لذة كثيرة، بل عن آخر حاصل على القليل من الألم، والكثير من اللذة، فضلاً عن مقاومته لرغباته، كما يعرض أحياناً لشهواته، ويفضل من يقاومها قليلاً.

أما الشهوات فتسلبه القدرة على التروى، لكنه يكتفى فى كل الحالات الأخرى بالمعارف لينـدم ويتروى، وهكذا أصبح حراً فالحرية إذن هى إمكان عمل ما لا يمكن عمله[2].

ويرى كوندياك أنه من غير المعقول أن يجبر التمثال على عمل فعلين متناقضين يريد أو لا يريد، يتنزه أو لا يتنزه، إن الاختيار بين

([1]) Ibid P 80.

([2]) Ibid P 81.

أعماله يؤثر على الحرية، ولكن التمثال بالضرورة يريد أو لا يريد، يتنزه أو لا يتنزه، إن ممارسة الحرية يفترض المعارف، ونحن نكتسب أدقها.

وفى حين جاءت إشارة كوندياك إلى الحرية مبهمة فى "دراسة فى الإحساسات" نجده يؤكد عليها فى مؤلفه "دراسة فى الحيوان" فيقول "إن حريتنا تتضمن ثلاثة أمور هى: أى معرفة بما يجب أو ما لا يجب عمله، وتعريف الإرادة، ثم إمكان عمل ما نريده".

إن الإدراك والإرادة مصطلحان مجردان ينقسمان إلى التفكير وعمليات النفس، وتمثل قوة العادة عند الحيوان قوتى الإدراك والإرادة، فهى تتأثر مثلنا وهذا هو جوهر الإرادة. لكنها لا تتأمل[1]. (لا تفكر بعمق) ومن ثم لا تعرف الإختيار الذى يأتى محصلة التأمل، وهكذا تقود الحيوان الظروف، فى حين تقود الإنسان الأحكام التى يستعد لها، ويتجاوب معها بالرفض، والقبول ، والإرادة فهو إذن حر.

والحرية عند كوندياك مركبة تفترض اجتماع الإدراك الذى يحكم، الإرادة التى ترغب مثلما تختار النفس تماماً، ولما كان الإدراك والإرادة من المجردات، فإن عمل النفس ينحصر فى الاختيار بين الموضوعات التى ترغبها وتميل إليها من معارفها المكتسبة.

لكن هل بوسع النفس أن تنفذ ما عزمت عليه؟

([1]) Ibid P 82.

إن بوسعها ذلك طالما استطاعت الفعل الذى يستثير حركتها أو قوتها، وهى ما نتأثر به جميعاً، فنحن نتنزه لأننا نريد أن نفعل ذلك، ثم نحول تحول هذه الأفعال إلى عادات[1].

ويرى كوندياك أن المعرفة فى الحيوان هى الوسيلة التى نحصل بها على أفضل معرفة لنا به، وهذا التشابه هو الذى يسهل لنا معرفتهم بدون النفاذ إلى طبيعتهم الداخلية. فالحيوانات ليست هى الآلات كما قال الديكارتيين[2]. لأنهم ينتبهون ويتحركون بإرادتهم ويحصلون على ما هو

([1]) Ibid P 83.

1) شاع مفهوم الآلية فى القرنين السابع والثامن عشر، فقد تصور ديكارت أن الحيوانات آلات خالية من النفس، ووضع لامترى الإنسان فى تصنيف واحد مع الآلة.
وهكذا استند إنكار ديكارت لوجود عقل لدى الحيوان على ثلاث حجج أبرزها فى مؤلفه "مقال فى المنهج" وهى على النحو التالى:

1- إفتقار الحيوانات لوجود العقل واللغة، ومن ثم تصبح فى مرتبة أقل من المخلوقات العاقلة.

2- عجزها عن القيام أفعال مغايرة لما تقوم به على الرغم من وجود قدراتها مما يدل على افتقارها للعقل. أما أفعالها فتنتج مقدماً بفعل الطبيعة التى تحددها، وهنا فإنها تشبه الآلة التى تحسب الوقت، وتتركب من عجلات ولوالب فتعمل بصورة أفضل، وبجهد أكبر منا.

3- إن الحيوان لا يستطيع التفكير مثل الإنسان ولا كانت له نفوس خالدة Descartes, R: Discours de la Metrhode A.T. Partie 5. P56-59
وفق هذا التصور الآلى أخذ ديكارت فى تشريح الحيوانات، واعتبرها آلات معقدة تتكون من لوالب وأنابيب وأجهزة، ورفض فكرة وجود النفوس عند بعضها مثل الإسفنج والمحار، وقد بين لنا فى مؤلفه "الخواطر الخاصة" فى المجلد العاشر من أعمال ديكارت، مدى اهتمامه بصناعة تماثيل تتحرك آلياً، كما بين فى كتابه "مقال فى الإنسان":- "إن جسم الإنسان يشبه الآلة فيما يقوم به من عمليات مثل الغذاء، وهضم اللحوم، وضربات القلب، وحركة الدم فى الشرايين، نمو الأعضاء، وعملية

خاص بهم، ويتحاشون الرفض ، كما تنظم الحواس كل من أفعالهم وملكيتهم، لكننا لا نستطيع منحهم قوى الحس أو نشرح آلية أفعالهم على نحو ما فعل بوفون؛ لأن ذلك يعنى أنه إذا أحست الحيوانات فإنها تحس مثلنا.

إن الإنسان يملك أعضاء الجسد التى تحدد طريقه، والنفس التى تقدر على الإحساس، والموضوعات التى تؤثر عليه، كما يجرب اللذة أو الألم، وهو يستطيع تنظيم حركاته، ويقارن الحالات المتتالية، ويلاحظ مرورها من واحدة لأخرى، وينتج الانطباعات التى تلاحظها نفسه، ويكتشف بالتدريج وبالعلاقة الداخلية بين نفسه، وجسده عادات الحركة، كما يكتسب عادة الحكم فى ذات الوقت وتتكون الحاجات نتيجة للحركات المتطابقة.

والحيوان مثل الإنسان يسلم بترابط الأفكار السهلة التى تمر بالمعارف وتكون مجموعات أخرى للحاجات[1]. فالحيوانات من نفس النوع، والأعضاء من نفس المادة لها نفس الحاجات، ولها نفس الإشباعات وبنفس الوسائل، كما يشتركون فيما يصلون إليه من قواعد عقلية عن طريق عقلهم، إلا أن إشاراتهم الفكرية تتمثل فى الألفاظ غير المنطوقة والحركات، وهى تشبهنا فى التكوين الخارجى الذى يكون الأفكار

التنفس، والتغذية، والنوم، واستقبال الصوت، والضوء، والشم والتذوق والحرارة ، وصفات الحواس الخارجية، والتخيل، وعملية انطباع الأفكار فى الذاكرة كذلك يصف لنا هذه الآلة فى إحساسها بالعواطف، وهكذا يتصور ديكارت وجود هذه الصفات الطبيعية فى الآلة التى يشبهها فى ترتيب أعضائها بالساعة أو الآلة وقد عبر عن ذلك فى مؤلفه العالم Descartes, R: Ie Monde, traite de l'homme Oeuvres, A.T.V, XI P201

([1]) Traite des Senasations P 84.

والوسائل للفعل المشترك مع الإنسان، فيكتسب الذكاء حين يسمع الأصوات المنطوقة، ويتعلم الكلب إطاعة صوتنا.

وفى حين يصبح الإنسان وحده هو الذى يملك الكلام، تصبح الغريزة بدرجاتها المختلفة هى بداية المعرفة عند الحيوان طبقاً لعدد الحواس والحاجات، وهى تسدد الطريق أمام التفكير (التأمل)، أو تكون عادة الحرمان من التأمل[1].

والمعرفة الحيوانية لا تلاحظ إلا عدداً قليلاً من الخصائص فى الموضوعات، ولا تتضمن إلا المعارف العملية، ولا تشكل المجردات والأفكار العامة.

أما الإنسان فهو الذى يتأمل عاداته، ويملك الإشارات، ويقدر على التجربة والتعميم، ويكتسب وحده المعرفة بالله، وبمبادئ[2]. الأخلاق، ويخلق وحده العلوم والفنون، ويكون حراًويستطيع تحويل عاداته؛ لأنه الوحيد الذى يفضل الإشارات الحاصلة على المعرفة بدرجة عالية، وهى ما نسميها العقل[3].

وبذلك تقدر النفس بفضل التجارب على الإحساس والتنظيم.

وبعد فإن الحاجات، القوى، الأفكار، الحركات التى تربط فيما بينها هى التى تكون الأنا، فى حين تكون الغريزة عند الحيوان،

---

(1) Ibid P 84.

(2) تزعم بعض الآراء أن فكرة الحرية تبدو غامضة فى كتابات كوندياك، مع أنه ذكرها صراحة فى بين الاحتمالات المعنوية. لكن الحقيقة أن الحرية قد تنصب على دروب من الاحتمالات المرتبطة بأفعال محسوسة.

(3) Ibid P 85.

لكن الإنسان قادر على التأمل والحركة، والصعود إلى الله ومعرفته، والحصول على مبادئ الأخلاق بفضل قوة عالية ألا وهى العقل، وها هو العقل، وها هو ذا الذى يحدث له طالما ارتبط بالجسد.

وتجدر الإشارة هنا إلى ملاحظة هامة، وهى أنه على الرغم من محاولة كوندياك تقويض إيديولوجية الكنيسة الكاثوليكية بيد أن بدايته فى سلك اللاهوت، وعمله قسيساً كان له أبلغ الأثر على احتفاظه الشخصى بالاحترام للدين وخشيته، فقد ظل رغم ظاهر مذهبه، ورغم ما وقع فيه من منزلقات تتعلق بالمثالية الذاتية، وموقفه من الإحساسات، وأفكاره في بعض الأحيان لوجود الدافع الرئيسي للحركة، أو تعتيم علتها، ظل على وفاء خفى وخشية مستترة للاهوت، فنجده يذكر الله، ويعتبره علة الأخرق، وواضع الشريعة. كما يلقى الضوء على فكرة الحرية فى مواضع أخرى فيراها متضمنة فى الواجب وتعريف الإرادة، وإمكان العمل، وهو إذ يشير إليها هنا إنما يعترف بوجودها، فيظل محتفظاً بموقفه اللاهوتى بين السطور، وكذلك بصلته بالله، فاعترافه بالحرية والإرادة يؤدى به إلى الجنة أو النار، ومن ثم يصبح مقدراً تماماً للمثوبة أو الجزاء. هذا من ناحية. ومن ناحية أخرى فنحن نلمح فى فكرته عن الحرية فيما يجب أو لا يجب عمله أثراً للفكر الكانتى عن الواجب، كما نلمح فى عبارته عن إمكان عمل ما نريده أثراً من موقف كانت فى إمكان المعرفة مما يؤكد أثر كانت عليه، وعلى فلسفته التى أطلق عليها اسم فلسفة الظاهرات أو ميتافيزيقا الوضوح والجلاء Phenomenologie على ما سوف نرى فيما بعد.